8

عندما بكى جمال عبدالناصر!

obeikan.com

obeikan.com

تزامن التلاشي التدريجي لمظاهرات فبراير ١٩٦٨ من الشارع المصري ، مع نمو حيرة شديدة ـ أخطبوطية الأذرع ـ داخلنا !

كانت الحيرة ـ داخلنا ـ تكبر بنفس القدر الذي تتضاءل به المظاهرات ، وعندما وصلت المظاهرات إلى نقطة الصفر ـ وصلت حيرتنا ـ أو أحسسنا بها تصل ـ إلى ما لا نهاية .

كانت حيرتنا تعبر عن نفسها بسؤالين .

ماذا الآن ؟ وماذا بعد ؟!

كانت الأغلبية منا يراهنون على أن عبد الناصر هو بطل التغيير القادم والضروري ، الآن وبعد المظاهرات وما حدث فيها ولها لابد أحَسّوا بأنهم لا يمكن أن يكونوا ـ وأن يكون عبد الناصر ـ مثلنا كانوا ـ وكان ـ قبل بداية المظاهرات .

لقد تعامل عبد الناصر معنا ـ وأغلبنا خرج له ولم يخرج عليه ـ بقسوة شديدة .

صحيح أنها كانت قسوة محسوبة ، لكنها وهي محسوبة كانت شديدة وصارمة ، ومحيرة !!

لقد حسب جمال عبد الناصر قسوته في مواجهتنا بميزان شديد الحساسية ، وإذا كان « هيكل » قد كتب أن عبد الناصر ، اهتز لمظاهرات الطلبة كما لم يهتز لشيء من قبل ، وأنه بكى ، لأن الثورة بدت بعد نكسة يونيو ١٩٦٧ ، وقد اختلفت مع شبابها ، اختلفت مع مستقبلها ، إذ كان هيكل قد كتب ذلك فإن معناه : أن عبد الناصر انفعل نفسيًا بلا حدود ، وانفعل سلطويًا بعدها بحسابات شديدة التعقيد .

انفعال ، وليس تفاعلاً ديمقراطيًا :

وانفعال عبد الناصر نفسيًا بلا حدود ، وتفاعله السلطوي « أفضل من الانفعال » ،

بحسابات شديدة التعقيد ظل هو الأسلوب الذي لم يعرف عبد الناصر غيره طيلة حياته وهو أسلوب رافض تمامًا للديمقراطية ، وما كان رفضه لها إلا لطبيعته العسكرية التي لم تتبدل ، فإذا كان قد استبدل ملابسه العسكرية بملابس مدنية ، في أعقاب مؤتمر باندويج الشهير عام ١٩٥٥ ، وذلك بعد أن أبدى نهرو ـ الزعيم الفكري في حركة الحياد الإيجابي ـ لعبد الناصر تخوفه من الروح العسكرية في إدارة الأوطان ، وقال لجمال عبد الناصر : إن غاندي صام حتى الموت ، ليؤكد للهنود أن الموت أفضل من وصول العسكريين إلى كراسي الحكم في الهند ، وقد كان نتيجة ما استمع إليه أن غيّر عبد الناصر نبرته « بذلته » العسكرية .

ولم يعد لارتدائها أبدًا فيما بعد ، لكنه عجز عن تغيير روحه ، فالعسكريون ـ ولعل عبد الناصر أفضلهم على الإطلاق « إذا ما غضضنا الطرف عن سوار الذهبي العظيم في السودان » ـ إذا ما غيروا ملابسهم يفشلون في تغيير جلودهم « الكاكي » روحهم « الكاكي » ، « وجلودهم وأرواحهم لا تقبل من الآخرين إلا الولاء الشخصي ، والطاعة العمياء » ، وهم حينما يتجملون بالديمقراطية فإنهم يكذبون ، أو على الأقل يقولون كلامًا من وراء قلوبهم ، ولعل لرفضهم للديمقراطية « الحقيقية » سببًا لا يمكن إغفاله ، فالعسكريون المخلصون رأوا حجم الإنجاز الهائل والسريع الذي توفره الروح العسكرية بالأوامر الفوقية التي لا راد لها ، وهم ـ المخلصون منهم ـ عندما يرون عيوب الروح العسكرية ، في تسيير المجتمعات ، يحاولون دائمًا أن ينسبوا تلك العيوب لأمور أخرى غير السبب الحقيقي ، « عبد الناصر كان ينسب كل عيوب نظامه لنشاطات الثورة المضادة ، والرجعية المكلومة المتنمرة المتآمرة » ، أما أسوأ العسكريين ، فكراهيتهم للديمقراطية تبقى أسيرة ذلك المجال الضيق في نفوسهم الأضيق في آفاق تفكيرهم الذي لم يعتدها ولم يحفل بها في

يوم من الأيام ، ولم يحترمها على الإطلاق !!

حديث صحفي يفضح ديمقراطية جمال عبد الناصر :

ولعله من المثير للانتباه ، ذلك الحديث الصحفي الذي أدلى به جمال عبد الناصر في مقابلة مع رئيس تحرير جريدة هندية « خل بالك من هندية هذه » ، في مارس ١٩٥٧ ، وقد قال فيه : « كان يفترض وجود نظام ديمقراطي في مصر في الفترة الواقعة بين عامي ١٩٢٣ و١٩٥٢ ، « خل بالك من التواريخ ومغزاها » ولكن ما الذي قدمته هذه الديمقراطية لشعبنا ؟ كان ملاك الأراضي والباشوات يحكمون شعبنا ، لقد استخدموا هذا النمط الديمقراطي كأداة سهلة لتحقيق مصالح نظامهم الإقطاعي ، لقد رأيت الإقطاعيين يجمعون الفلاحين ويسوقونهم إلى غرف الاقتراع ، حيث كان الفلاحون يدلون بأصواتهم طبقًا لتعليمات سادتهم ، أنني أبغي تحرير الفلاحين والعمال سواء من الناحية الاجتماعية أو من الناحية الاقتصادية ، بحيث يمتلكون القدرة على أن يقولوا : « نعم » و« لا » ، دون أن يؤثر ذلك على سبل رزقهم وقوتهم اليومي .

وهذا من وجهة نظري هو أساس الحرية والديموقراطية (ص٣٧ ، ٣٨ من « الديمقراطية في الشرق الأوسط ، تحرير د. أحمد عبد الله ــ مركز الجيل ١٩٩٥ القاهرة) ، كان عبد الناصر قد أدلى بحديثه هذا بعد أن ضرب طبقة ملاك الأراضي اقتصاديًا بقانون الإصلاح الزراعي ، وسياسيًا بحرمان أعضائها من العمل السياسي ، حتى يخشى استغلالهم للديمقراطية . ولقد جاء الميثاق الوطني ١٩٦٢ ليؤكد ما قاله عبد الناصر للصحافة الهندية ١٩٥٧ ، فرفع شعار إن حرية رغيف الخبز هي الضمان الأكيد لحرية تذكرة الانتخاب ، وعاش عبد الناصر ومات ولم يثبت أن أحدًا في عصره استطاع أن يقول : « لا » و « نعم » دون أن يخشى على رزقه ،

إن حديث جمال عبد الناصر « هذا » إن لم يعكس كفره بالديمقراطية ، فإنه على الأقل يعكس كراهيته لها إلى حد التأجيل المستمر .

لقطة لابد من التمعن فيها :

في مذكراته (٢٣ يوليو وعبد الناصر ، شهادتي ، مركز الأهرام للترجمة والنشر ١٩٩٠) ، يرسم لنا الأستاذ عصام حسونة « كان وزيرًا للعدل عام ١٩٦٨ » ، ملامح لقطة في غاية الأهمية ، وكانت اللقطة في اجتماع مجلس الوزراء جلسة ٢٥/ ٢/ ١٩٦٨ ، وهي الجلسة التالية مباشرة للمظاهرات .

يقول الأستاذ عصام حسونة (ص١٨٢ وما بعدها) :

انعقد مجلس الوزراء يوم الأحد الموافق ٢٥/ ٢/ ١٩٦٨ ، وهو موعد الانعقاد الأسبوعي ، برئاسة جمال عبد الناصر « لعلك تذكر أن عبد الناصر جمع بعد النكسة بين رئاسة الجمهورية ورئاسة الوزارة » ، وكان جدول أعماله ـ المعلن من قبل ـ هو مناقشة تقرير لجنة الخطة عن المواصلات ، بيد أن الأحداث الجديدة في الأحكام الصادرة ضد الفريق صدقي محمود ، بعض قادة الطيران ، وما أعقب ذلك من تفجر الطلبة في القاهرة ، كان هو الموضوع الرئيسي الذي شغل المجلس .

في أول الجلسة دعا الرئيس وزير الحربية إلى الكلام .

الفريق فوزي : ثبت الإهمال ضد قادة الطيران ، حكم المحكمة سليم ، وأبعد عقدة الذنب عن سلاح الطيران ، وقع الحكم طيب في القوات المسلحة ، ولهذا صدقت على الحكم .

الرئيس : نأخذ رأي المجلس .

د. لبيب شقير « وكان وزير التعليم العالي كما تعلم » : لقد تحركت مظاهرات الطلبة عقب صدور الحكم ، الذين حركوها عناصر يمينية رجعية « أعداء الثورة

يعني » ، تتبعنا زعماءهم وجدناهم من الجمعية الشرعية ومن الإخوان المسلمين « يا عيني عليهم ، ألبسهم الجريمة بمنتهى البساطة!! » ، (هل كان هذا كلام وزير أم كلام مخبر في المباحث؟!). موقف الشرطة موقف سليم « الضرب بالرصاص في المليان » ، رأيي إعادة محاكمة صدقي محمود أمام محكمة ثورة أو محكمة شعبية « المحكمة العسكرية لا تكفي » لأن العقوبة الصادرة ضده لا تكفي .

د. النبوي المهندس « وكان وزير الصحة » : يجب تعليق صدقي محمود وزملائه على المشنقة في ميدان عام ، الطلبة المصابون في المظاهرات أعربوا لي عن ولائهم للرئيس وقد حملوني رسالة ، إنهم يقبلون يد الرئيس ، وقد زرتهم في المستشفى مع الأخ سامي شرف .

ويقول السيد عصام حسونة : إنه تكلم في الجلسة « وأنا ألخص هنا من كلامه » ، عن استحالة الاعتراض على الحكم « قانونيًا » واستحالة إعادة المحاكمة ، ثم قال : على أية حال أنني أرى أن يركز المجلس مناقشته على مظاهرات الطلبة التي أعقبت صدور حكم الطيران ، وأن نستخرج منها كساسة ، لا كسلطة أمن « خل بالك من هذه » الدلالات السياسية الصحيحة ، وإنه طلب أن يوضح شعراوي جمعة حوافزها واتجاهاتها ومؤشراتها « وكان يقصد المظاهرات » ، وأن يلقي السيد الأمين العام للاتحاد الاشتراكي. (وهو شعراوي جمعة برضه) كل الأضواء الممكنة على هذه المظاهرات ، وقال : « إن هذه أول مظاهرات يمكن أن تسمى انتفاضة سواء من حيث النوع أو الأهداف أو الشعارات وقد أورد من تقرير النيابة العامة عن هذه المظاهرات هتافات ترددت في المظاهرات كانت كالتالي : « تسقط دولة المخابرات «أي علاقة لذلك بالطيران وقضيته » تسقط دولة العسكريين « هل هناك علاقة ؟ » ، تسقط صحافة هيكل الكاذبة ، « هل هناك علاقة ؟ » ، لا حياة مع الإرهاب

«السلطوي » ، ولا علم بدون حرية ، يا جمال الشعب هوه هوه « أظنها كنت أهوه » اضرب الخونة بقوة « ألم نقل أن كان الجيل لم يتخلص من استثنائه جمال عبد الناصر من فساد وتجبر ، وإرهاب حاشيته حتى تلك اللحظة » ، يا سادات يا سادات ، فين قانون الحريات « لقد بعد الشأو ولم نر علاقة للشعارات بأحكام الطيران » ، يا شعراوي يا جنان راحو فين عمال حلوان .

تحليل لتقرير النيابة العامة :

وقاتل السيد عصام حسونة : « اسمحوا لي أن ألخص أمامكم أهم ما جاء به تقرير النيابة العامة » :

أولًا : إن المظاهرات بدأت في حلوان تحت إشراف الاتحاد الاشتراكي « تذكر الآن ما جاء في مذكرات أحمد شرف عما حدث له مع منظمة الشباب ، فسوف تجد تطابقًا مذهلًا يغيظ » ، فالذي يؤخذ من مجموع أقوال عبد اللطيف مليجي بلطية « زعيم عمالي وعضو بارز في الاتحاد الاشتراكي العربي » وآخرين من مسئولي الاتحاد الاشتراكي : « بأنه عقب اجتماع السيد عبد اللطيف بلطية مع السيد عبد المجيد فريد « كان أمين العاصمة في الاتحاد الاشتراكي ، وفي نفس الوقت مدير أحد مكاتب جمال عبد الناصر للمعلومات في رئاسة الجمهورية » [illegible] بمناسبة ما كان قد وصل العلم به من [illegible] الأحكام الصادرة في قضايا الطيران [illegible] التفجر . هل تذكر [illegible] كلفت قيادات الاتحاد الاشتراكي « الكلام لبلطية » بالحضور إلى مقر المكتب التنفيذي في الصباح لمنع خروج المظاهرة « قال بعقلية العباقرة المعارضين لكل ما جاء به جمال عبد الناصر ، وما فعله إن الاتحاد الاشتراكي هو الذي أخرج كل المظاهرات في عصره » ، أو مواجهة التعبير الجماهيري بأسلوب سياسي ديمقراطي « إذا كنت مندهشًا من

الكلمة انتظر إلى أن نقرأ الباب المعنون « تنظيم عبد الناصر الطليعي » ، أو تنظيم حركة الجماهير « حسب أقوال السيد محمد وهدان » ولكن رجال الاتحاد الاشتراكي فشلوا في السيطرة على المتظاهرين « كانت دومًا مهامهم مستحيلة ، تتلخص في أن يكونوا مع الجماهير وضدهم في نفس الآن لم نرهم إلا يفشلون » ، وتصدى رجال الشرطة لهم وأطلقوا النار عليهم فأصيب ٩ من أعيرة نارية ، من بينهم أربعة كانوا مارين بالصدفة « راجع دفاع محمد حسنين هيكل عن جمال عبد الناصر في الباب قبل الأخير ، والذي قال فيه : إنه لم يكن هناك إطلاق رصاص على الإطلاق!! » .

ويقول عصام حسونه ـ أيضًا ـ من تقرير النيابة العامة :

ثانيًا : إن المظاهرات ما لبثت أن انتشرت في دائرة عدد من أقسام القاهرة والجيزة والإسكندرية ، وفي كلية الهندسة بجامعة القاهرة بالذات « ألم نقل أن كان للهندسة موقف تحسد عليه ، ويحسد عليه أبناؤها » .

ثالثًا : إن الشرطة قد أطلقت الأعيرة النارية على بعض المظاهرات وقد سقط اثنان من القتلى « مرة أخرى راجع دفاع الأستاذ هيكل » ، كما أصيب ــ من غير الأعيرة النارية ـ من رجال الشرطة ٢٢ ضابطًا ، ٦٥ شرطيًا ، ٤٠٠ من الطلبة والأهالي ، كما حدثت تلفيات في سيارات الشرطة وغيرها من الممتلكات الحكومية والأهلية .

رابعًا : « وهذه نهديها للسادة المحللين حسني النية وسيئيها ، قبل أن نوجه لهم الضربة القاضية » ، إن هتافات المتظاهرين وطلباتهم قد تجاوزت حدود قضية الطيران ، وتناولت النظام ذاته « وأورد مطالب الطلاب التي ذكرناها من قبل » .

ويشهد شاهد من أهلها :

وقال السيد عصام حسونة في اجتماع الوزراء المذكور : « لقد انقضت على هزيمة يونيو ثمانية أشهر ، فهل ينبغي أن نعاود مناقشاتنا ــ كمجلس وزراء ــ في أسباب

الهزيمة والتزامات النظام في تصحيح ما حدث ؟ « الدعوة الشعبية العارمة بضرورة التغيير » ، أن نتحدث مرة أخرى عن أسلوب الحكم « هذا هو الأساس » عن نظام الحكم « وهذا هو مربط الفرس » .

لقد قلنا من قبل : إن نظامنا اشتراكي « ناصري » ديمقراطي ، يقوم على سيادة الشعب ، وقيادة جماعية منتخبة ، وسيادة القانون ، وقلنا : إن الانحرافات التي شابته عندما ناقشنا أسباب النكسة ، هي انعدام القيادة الجماعية ، الافتئات على سيادة القانون ، الهوة الشديدة بين الشعار والسلوك ، ضعف النقاء في بعض القادة .

إن الشعب بعد ثمانية أشهر من الهزيمة ، لا يزال يطرح هذه الأسئلة ، هذه المرة بصوت أعلى لابد من تغيير جذري .

شيء واحد يشغل جمال عبد الناصر :

بعد هذه الشهادة المطولة من وزير العدل « الأستاذ عصام حسونة » « والتي اختصرتها » لم يشغل جمال عبد الناصر إلا شيء واحد :

الرئيس : نعود إلى قضية الطيران ـ لقد اطلعت على أقوال الشهود ، الغريب أن قائد القوات الجوية الجديد مدكور أبو العز شهد لصالحه « للتاريخ يُحسب هذا الموقف الرجولي للرجل الشريف مدكور أبو العز ، فقد ترك القوات المسلحة والطيران قبل النكسة لخلافات حادة عميقة مع صدقي محمود ، وها هو ذا يشهد لصالحه ، ولصالح الحقيقة عندما جاءته الفرصة للانتقام ، إن في مصر رجالاً » .

الفريق فوزي : يبدو لي الحكم كان سيئ الوقع على القوات المسلحة « لم يكن ذلك كلامه في أول الجلسة ، كان العكس تمامًا » إنني أرى تحرير الحكم وإلغاءه وإعادة المحاكمة .

الآن وقد كان وصف الأستاذ عصام حسونة لجلسة مجلس الوزراء التاريخية تلك ،

برئاسة جمال عبد الناصر ـ أن ينتهي « فلم تبق إلا قنبلة واحدة ، لابد ستنفجر في قناعات المحللين حسني النية وسيئيها » ، يستطيع القارئ بنفسه أن يحكم على وزير التعليم العالي ، د. لبيب شقير « هنا وأيضًا في استئذانه المكشوف على الطلبة ، عندما قابل لجنتهم المكونة من اثنى عشر طالبًا والتي وعدوها بمقابلة جمال عبد الناصر » ، ويستطيع أن يحكم على الفريق « أول » محمد فوزي ، ووزير الصحة د. النبوي المهندس ، ويستطيع إذا عاد للأصل الذي اختصرته أن يحكم على وزير الداخلية شعراوي جمعة (وهو في نفس الوقت أمين الاتحاد الاشتراكي والتنظيم الطليعي) ، ووزير الثقافة ثروت عكاشة ، وعلى مجلس الوزراء بالكامل .

لكن شيئًا وحيدًا أريد أن أشارك القارئ حكمه عليه ، هو إصرار جمال عبد الناصر على أن الأمر لم يبتعد عن كونه اعتراضًا عماليًا طلابيًا شعبيًا على أحكام قضية الطيران ، حتى بعد أن تلا أمامه وزير العدل المطالب الطلابية كاملة « هذا الإصرار أصبح إصرار الأستاذ هيكل أيضًا وحتى إعلام آخر » ، لقد كان إصرار جمال عبد الناصر هذا دليلًا إن لم يكن على عدم قبوله مبدأ « التغيير » ، فهو دليل أكيد على أنه لا يقبل أن تكون دعوى التغيير مبادرة جماهيرية « تعود عبد الناصر على أن تكون المبادرة دائمًا في يده حتى وهو يعمل لمصلحة الجماهير ، ولم يقبل أبدًا أن تحثه الجماهير على تحقيق مصالحها » ، وأقول « دليل أكيد » لأن بيان « ٣٠ مارس » الذي حللناه في فصل لاحق ، هو إثباتي لهذا الدليل الأكيد ، لكن جمال عبد الناصر ـ الذي لم يتغير ـ لم يكن يعرف بأن قنبلة شديدة الانفجار في طريقها إليه في تلك الساعة التي أراد ألا ينشغل فيها عن اتخاذ قرار بإعادة محاكمة قادة الطيران « وهو ما حدث بالفعل » ، ظانًا أن هذا التراجع سيجعل اعتراض الطلاب على نظام حكمه ، كأن لم يكن .

ضربة قاضية لآراء السادة المحللين حسني النية ، وسيئيها :

يقول الأستاذ عصام حسونة ، إنه خلال إصرار عبد الناصر على حصر الكلام في

موضوع إعادة المحاكمة اقترب السيد عبد المجيد فريد سكرتير عام مجلس الوزراء وقدم له المنشور الصادر من طلبة كلية هندسة القاهرة والمتضمن لطلباتهم « وثيقة طلاب الجامعات فبراير ١٩٦٨ » ، وقد كان خالد عبد الناصر ابن الرئيس موجودًا بينهم في الوقت الذي كتبوا فيه هذه المطالب.

قرأ الرئيس الوثيقة ثم قال :

الرئيس : يبدو أن حكم صدقي محمود ليس له أولوية لدى الطلبة « خل بالك من معنى كل كلمة » إنهم يطلبون حل الاتحاد الاشتراكي ، وإطلاق الحريات ، وإعادة تحقيق المسؤولية عن النكسة ، أظن هذا يكفينا الليلة .

ويقرر الأستاذ عصام حسونة أن « نهض الرئيس مبتئسًا بعد أن فض الاجتماع » .

أليست هذه بحق ضربة قاضية لآراء السادة المحللين حسني النية وسيئيها ، ها هو ذا جمال عبد الناصر بنفسه في جلسة مجلس الوزراء وما زالت بعد المظاهرات صاخبة في الشارع المصري ، بأن الأمر لم يكن مجرد اعتراض على أحكام الطيران بل إن الأمر كان ما هو أكبر ، دعوة للتغيير ، وللديمقراطية ، وضمانًا لا يتكرر كابوس النكسة .

ولنعد لما كنا فيه :

عاند عبد الناصر وأصر على رفض التفاهم مع القضية الشبابية ، إلا بأسلوب قائد الوحدة العسكرية « مصر » الذي يحب جنوده « شعبها » ، ولا يحب اعتراضهم على تصرفاته « أي لا يحب الديمقراطية » ، في الوقت الذي انهمرت دموعه فيه لأن عفريت اختلاف ثورته مع مستقبلها « الشباب » خرج من القمقم ولن يعود إليه إلا بتنازلات لابد رأى جمال عبد الناصر أن من الصعوبة ، بل من الاستحالة ، أن يقدم عليها ، حتى وإن كانت لمصلحة ثورته العظيمة!!! « الجاحدون وحدهم ينكرون هذا الأمر » ولمصلحة الشعب الذي أحبه كثيرًا وبذل عمره واستشهد من أجله

« أيضًا الجاحدون وحدهم على الجانب الآخر ينكرون هذه الحقيقة » .

أراد جمال عبد الناصر أن يروعنا إلى حد يخيف آبائنا ، ولا يسوغ لهم أو يحركهم ـ معنا ـ للثورة ضده ، فاتخذ ونظامه سمت الحكماء ، الذين يستطيعون ممارسة عنف أشد ضدنا ، لكنهم برغم هذا لا يفعلون ، ذلك أنهم يواجهون فلذات أكباد « راحوا أو جاءوا شوية عيال » ، تم التغرير بهم .

ولقد كان آباؤنا وقتها مستعدين لفهم رسالة عبد الناصر ، ذلك أنهم اعتادوا أن يروا من جمال عبد الناصر قبل النكسة منتهى الشراسة في مواجهة معارضيه من الشيوعيين والإخوان وعملاء الرجعية المصرية والعربية « اعتاد عبد الناصر ألا يخرج معارضيه من دائرة التوصيفات الثلاث هذه » .

كان آباؤنا يعلمون أننا لا نندرج تحت واحدة من هذه التوصيفات ، لكنهم ـ آباءنا ـ كانوا يعرفون النكتة التي سرت في عصر عبد الناصر سريان النار في الهشيم « ومن الضحك ماله مرارة البكاء » ، تلك النكتة التي تحكي عن أن قرادتيًا كان يلاعب قرده في مقهى ، وفجأة هاجمت المباحث العامة المقهى للقبض على الشيوعيين « قيلت النكتة أيضًا في الإخوان المسلمين » ، وما أن دخل رجال المباحث المقهى ، حتى سارع القرد بالاختباء ، وبعد أن قبضت المباحث العامة على من جاءت من أجلهم اتجه القرداتي إلى قرده متسائلًا : طب المباحث عايزين الشيوعيين ، إنت بسلامتك استخبيت ليه ؟

فرد القرد مرتعدًا :

– يا عم حد ضامن ، حلني على ما أقدر أثبت إني قرد !! والحقيقة أن آبائنا اضطربوا ، واضطربنا نحن باضطرابهم ، كانوا موافقين على ما نقوله ، وكانوا خائفين علينا ، وخائفين من أن يعلنوا أنهم كانوا يرون ضرورة أن يحدث تغيير في

ممارسات السلطة وفي إدارة البلاد « الأمر الذي طالبنا به في مظاهراتنا » .

لكنهم كانوا أيضًا غير متأكدين من أن ـ في تلك الأيام ـ الوقت المناسب لهذا التغيير ، وغير متأكدين كذلك من أن الوقت غير مناسب . فلو لم يحدث تغيير ، فأي مصير ينتظر البلد ؟ « إن من بدأ المأساة ، لا يستطيع إنهاءها إلا في قصائد نزار القباني العاطفية » .

الألوان الطبيعية تشاركنا الهم ، والتساؤل :

ولقد غدت القاهرة ـ التي كانت مظلمة في الليالي بفعل تقييد الإضاءة في زمن الحرب ـ وقد انسحبت منها المظاهرات ، مظلمة أيضًا في النهارات « بشكل واقعي لا مجاز فيه » ، لها رائحة الشياطة ، وأسفلت شوارعها الذي كنا نراه رماديًا داكنًا ، ها نحن في تلك الأيام نراه شديد السواد منصهرًا تلتصق فيه خطواتنا ، ويعطلنا ، ويجبهنا بلون الخطوات ، أما الأسوار حول مبانيها فقد صارت أعلى .

ماذا الآن ؟ وماذا بعد ؟!!

ما الذي استطعنا تحقيقه ؟!

وماذا يجب أن نفعل بعد ذلك وقد خرج جمال عبد الناصر من حساباتنا ؟

كنا نرى القاهرة والأشياء والمستقبل « ونشمهم أيضًا » بعيون الحيرة .

وكنا قد أصبحنا مطاردين بخوفنا من الغد ، وبخوف آباءنا علينا وترقبهم الحَذِر لما ستأتي به الأيام القادمة .

أبي يحل الإشكال :

أذكر أنني كنت أقضي وقتي كله ـ في تلك الأيام ـ خارج البيت ، فقد كنت أخشى من مواجهة أبي ، لكني فوجئت بأبي « أبي الذي كنت وأنا في المظاهرات أهتف بسقوط جمال عبد الناصر غير هايب من سطوته « أقصد سطوة جمال

عبد الناصر » ومن الاعتقال ، ومن مصيبة سوداء لم أكن أعرف حدودها قد تكون في طريقها إليَّ . أخفي وجهي في المظاهرة ـ حين أصبح في مرمى بصره « أبي » إذا ما حدث وأطل من شرفه مكتبه في شقتنا على المظاهرات في شارع القصر العيني ، خوفًا من أن يراني » . فوجئت بأبي يتعمد الكلام معي عن المظاهرات ، وكأن آخرين يقومون بها ـ واصفًا إياها بأنها مظاهرات عظيمة ، وأنها لابد أن تستمر لكي تثمر نتائج جيدة .

في المرة الأولى التي قال فيها أبي هذا الكلام ، كدت أقوم وأحتضنه ، لكني وقتها خفت أن يكون احتضاني له بمثابة اعتراف صريح مني بأنني أشارك في المظاهرات ، لقد فهمت لحظتها أن أبي يعرف أنني أشارك ويوافق ، لكنه لا يريد أن يعلن أنه يعرف أو أنه يوافق ، فهمت أن أبي يريد أن يترك القرار لي ، مع أن النتائج سوف نتحملها نحن الاثنين .

لم أقم لأحتضنه وقد خلصني من ازدواجية كانت تؤرقني بالإضافة إلى حيرتنا الكبيرة ، يومها صممت على أن أنفذ مشيئة أبي ، وأن أتكلم أنا الآخر وكأن الآخرين يقومون بها ، وهكذا غدونا نتفاهم ونتناقش بحيادية مصطنعة أجدنا حبك خيوطها الأمر الذي لم يمارسه ـ أبي الحازم القاطع معي ـ قبلها ولا بعدها أبدًا » .

وأذكر ـ كذلك ـ أن أبي قال بينما كنت أحمل القهوة إليه في مكتبه صباح يوم جمعة تالٍ للمظاهرات ، وكان ساعتها يقرأ مقال الأستاذ محمد حسنين هيكل ، عن الأحكام والمظاهرات وإعادة المحاكمة (١/ ٣/ ١٩٦٨) .

الطلبة موش لازم يخافوا من الكلام ده « كان يقصد التهديدات الخفية التي امتلأت بها مقالة الأستاذ هيكل الذي صور نفسه ـ بعدها وبرغمها وكأنه كان مدافعًا عنا.. وكان هذا الأمر يحلو له كثيرًا ، وكان يعاني الأستاذ من عقدة ذنب

دفينة » الطلبة موش لازم تخاف وإلا زمايلهم المقبوض عليهم ممكن يضيعوا .. والولاد لو ضاعت الجامعة ح يركبها الخوف تاني ، ومش ح تقدر تعمل حاجة .

ساعتها رددت براءة :

حاضر يا بابا .

وضحك أبي ، لكنه سرعان ما عاد إلى تجهمه وقال :

إيه حاضر دي ؟! أنت إيه علاقتك بالمظاهرات دي ؟

أصابني ارتباك شديد ، لقد خرجت على اتفاقنا الضمني !!

قصد فعلًا ، مش لازم يخافوا .

وقال أبي في حزم حنون ؟

خلي رأيك ده لبعدين ، لما تقرأ المقالة الأول .

كان أبي يقرأ الجرنال أولنا ، ثم بعد ذلك نتخاطفه نحن ، يومها خطفت الجرنال ورحت ألتهم المقالة ، وفهمت ـ برغم محاولات الأستاذ هيكل لإيصالنا إلى عكس هذا الفهم ـ أن تركيز هيكل على أن صورة الجبهة الداخلية يجب ألا تهتز في مواجهة عدو صار قريبًا منا على الشاطئ الشرقي لقناة السويس « والذي كان يطالبنا من أجلها بالهدوء » ، يجب ألا تخيفنا من التحرك لإنقاذ زملائنا ، تحركًا صاخبًا إذا لزم الأمر وإلا لن يجرؤ آخرون على الاعتراض ، بعد ذلك أبدًا .

وأذكر أيضًا العيد . كان العيد الكبير « عيد الأضحى المبارك » على الأبواب وقتها ، وكانت أيام الأعياد في ذلك الوقت عندي هي أجمل أيام السنة بالفعل « تلك التي لم يعد لها طعم الآن » ، كنا ، أولاد الخالات والأخوال ، نذهب جميعًا لنقيم في البيت الكبير ، بيت جدي . بالحلمية الجديدة ، نقضي الوقت في ضحك ولعب

وصخب جميل باختلاف أعمارنا « كان الاختلاف يمتد لأكثر من عشرين سنة بين الأصغر والأكبر في الأعمار » ، وهناك تذبح أضحيات العائلة جميعًا ، ويفعل كل منا ما يريده ، ويفعل الكبار أيضًا لكل منا ما يريده ، كانت أيام حرية وسعادة ، لكنني ـ وكنت أصغر واحد في جيل الأقارب هذا ـ فوجئت بأن الجميع في بيت جدي ، قد بيتوا النية على أن يتخذوا العيد في هذه السنة فرصة لكي يعيدوا فيها عقلي إلى رأسي ، كنت قد ذهبت بإحساس غائر بالذنب ، زملائي في السجن ، فهل يحق لي أن أفرح وسط أقاربي ؟ ولما هجم الأقارب عليَّ « تحت قيادة أمي ـ حبيبتي ـ التي آثرت أن تبدو صامتة ما دام الجميع يتكلمون بلسانها » ، ليبينوا لي خطورة ما ارتكبته من جرم في حق نفسي ومستقبلي والعائلة التي سيذهب أفرادها وراء الشمس ، إذا ما أصررت على مشاركة الأولاد المنفلتين في الجامعة فيما يفعلونه ، عندما هجم عليَّ أقاربي ـ أحبائي ـ بهذه الكلمات « العاقلة » فوجئت بنفسي منفعلًا لأول مرة في مواجهة من هم أكبر مني سنًا هؤلاء الذين أحم لأصغرهم ، وأقلهم شأنًا حبًا ، وجمائل تطوق عنقي ، وتمنعني عن الانفعال ضدهم.

زملائي أحسن الناس ، وأشرف الناس ، والبلد بلدنا ، ليست بلد جمال عبد الناصر ، ولن يفعل بها وفيها ما يشاء .

كانت الدموع تخنقني ، ووجدتني أجري ناحية الباب ، منفلتًا إلى الشارع ، متخلصًا من إحساسي بالذنب ، « ها أنا ذا يا أصدقائي المتعقلين ـ مثلكم ـ لن أستمتع بالعيد الكبير » .

وقفت في الشارع ، كدت أصيح وإحساس الندم على ما بدر مني في مواجهة كبار يحبونني ويخافون عليَّ ، يحاول إفساد فرحتي ، فرحتي المجنونة بأنني لن أفرح في العيد ورملائي ـ الذين لا أعرف أكثرهم معرفة مباشرة ـ في السجن .

كدت أصيح في الشارع :

غضب أقاربي مقدور عليه ، سأسترضيهم فيما بعد لكنني يا زملائي الأعزاء ، لا أقبل أن أفرح وأنتم سجناء .

فجأة ، وجدت من يربت على كتفي.. كان ـ الذي ربت عليَّ بحنان ـ زوج ابنة خالتي وكان عقيدًا في القوات المسلحة « مدفعية » ، كان جميل الصورة ، وجميل المخبر أيضًا « العقيد عادل حافظ عبد المجيد » ، ارتبكت في مواجهة وجهه الملائكي ، شدني من يدي في حنان وفتح باب سيارته ، وقال : اركب .

ركبت قال لي : أنه منع الجميع من أن يخرجوا ورائي بعد أن وعدهم بأنه سيعود بي إلى البيت الكبير ، وفاجأني قائلًا وهو يدير موتور السيارة :

إنت عايز تروح مش كده ؟

أيوه .

لازم تروح ، إنت مش لازم تقعد وزمايلك في السجن ، ما تقلقش من ناحية العيلة أنا ح تصرف .

كان يقرأ ما في قلبي في مهارة اكتسبها قلبه الكبير من ممارسات كثيرة قاسية ، قال :

اللي انتوا عملتوه صح ، الفساد أكبر مما تتصوروا ، الفساد هو اللي هزمنا مش إسرائيل ، الجهل مش جيش الدفاع الإسرائيلي ، البلد لازم تتغير ، علشان نقدر ننتصر .

امتلأت عيني لحظتها بصورة عادل ـ زوج ابنة خالتي ـ عائدًا من الحرب ، ممزق الملابس ، ممزق الجسد والروح ، تلك الصورة التي لم يتحملها حموه « زوج خالتي » فغادر بيت ابنته لا يرى ما أمامه لتصدمه عربة تحت منزل الابنة ، ويقضي شهورًا تحت العلاج ، وتذكرت صوته ـ أيضًا ـ يقول لي وقتها :

– كنا قد أفلتنا بالفرقة الرابعة « أقوى فرق الجيش المصري آنذاك » وتمركزنا عند

قناة السويس في انتظار ـ وصول الإسرائيليين الذين اخترقوا قواتنا في كل مكان في سيناء ، وأرغموا جنودنا على الانسحاب بين قواتهم وتحت نيران طائراتهم ونبالمهم ، كنا نستطيع في الفرقة الرابعة أن نفعل شيئًا إذا ما وصلوا إلينا ونحن متمركزين في وضع ممتاز ، لكن شمس بدران أصدر لنا أوامره بأن نتجه إلى العريش ، أن نعود إليها ، كان يقول أي كلام ، بل كان يقول كلامًا بعيدًا عن أي تعقل ، بعيدًا عن العلوم العسكرية وفن القتال ، وتحركنا بعد أن فشل قادتنا في إقناعه بالعدول عن فكرته ، فصمموا على تنفيذ أوامره عملًا بمبدأ الطاعة ، لنقع في مصيدة إسرائيلية ، تمكنت من تدميرنا بالنابلم ، بينما كنا نتحرك عرايا من أي غطاء جوي ، بل من أي غطاء أرضي أيضًا من الأجناب ومن خلفنا ، وفقدنا قوتنا الضاربة التي كانت تستطيع أن تمنعهم من السيطرة السهلة على شاطئ قناة السويس الشرقي على الأقل .

كانت دموعي في عيني وأنا أتذكر وكانت دموعه في عينيه الملائكيتين فهل كان هو الآخر كان يتذكر ؟!

أوصلني عادل إلى بيتنا في جاردن سيتي .

في البيت لم يسألني أبي لماذا عدت ؟ (وكان أبي المشغول دائمًا بعمله كأستاذ جامعي، وبحوثه ، وبحوث لمجمع اللغة العربية كمستشار للتاريخ القديم، بالإضافة إلى كتاباته ، التي كان شديد التدقيق فيها ، فلم يكمل معظمها ، لأنه لم يعمل بتخدير هيجل حين قال : هذا الكتاب ، لو أردت أن يخرج كما أبتغيه لما خرج أبدًا ، كان أبي المشغول دائمًا لا يقضي معنا أيام الأعياد ، وكذلك لم يكن يقضيها معنا رجال العائلة المسئولون ، فكما نتمتع بالحرية كلها ، تحت سقوط دفاعات الحالات المستمرة) لماذا تركت بيت العائلة الكبير ؟ ولم يشاركني في الاستماع إلى خطبة جمال عبد الناصر في حلوان (١/ ١/ ١٩٦٨م) سمعها كل منا على حده ، تلك الخطبة التي

أنهاها جمال عبد الناصر بقوله عن زملائنا المقبوض عليهم « ما معناه » : أنه برغم كل شيء فسوف يعيدون « يقضون العيد » وسط أهاليهم .

فرحت بالطبع للإفراج عن زملائنا ، لكن حيرتي لم تهدأ ، لقد تزايدت فقد نزع عبد الناصر الفتيل الذي كان من الممكن يعيدنا إلى الحركة الصاخبة ، وهو المطالبة بالإفراج عن زملائنا المعتقلين ، واتخذ في نفس الوقت صورة الأب الذي يعفو عن أبناء تطاولوا عليه ، فهل كان هذا هو ما سعيناه من أجله؟! ، أو هل يمكن أن يصبح ذلك نهاية ما خرجنا في متاهات الخوف والضياع لكي نحققه ؟!!

والذي لن يفهم حيرتنا في هذا الوقت ، لم يفهم لماذا خرجت مظاهرات نوفمبر ١٩٦٨م « التي ظلمت كثيرًا حتى داخل الحركة الطلابية نفسها » ، بهذه القسوة وبهذا العنف في الإسكندرية ولن يفهم أيضًا لماذا لم يكن لها نفس الصدى العنيف في القاهرة .

لقد خرجنا في فبراير نطالب بالتغيير وحدث تغيير بالفعل في قوتنا ، وليس قوى السلطة ، انكسرت حلقة الصمت الخانقة ، وانكسر جدار خوفنا ، وإن بقي جدار خوف المجتمع ، وزدنا ثقة في وعينا وفي الوسائل بين أيدينا لمواجهة السلطة ، وتلقى الحكم العسكري من العمال ومنا الطلبة هزيمة علنية حين أعاد محاكمة قادة الطيران ، وشكل عبد الناصر وزارة مدنية « هي الأولى في تاريخ ثورته » من أساتذة الجامعات ، أيضًا ، قطعت اليد الطولى للمباحث العامة ، التي كانت تتصرف من قبل وكأنها المتحكمة في رقاب خلق الله « أو لنكن أكثر صراحة ولنقل أنها كانت المتحكمة في رقاب العباد » إذ أنه بعد المظاهرات وما جاء فيها على لسان الغاضبين من هتافات تندد بنظام فاسد وحريات مفتقدة ، وما جاء في بيانات الطلاب أيضًا عن دولة المباحث ، بدأ التحقيق في قضايا التعذيب ، ذلك التحقيق الذي أسقط هيبتها وسحب منها « شيكًا » قدم لها من قبل على بياض ، ثم كان أن تشكلت لجنة من مجلس الأمة لدراسة قانون

الحريات العامة ، ولم يمض طويل وقت « شهر على نهاية المظاهرات » حتى أصبحت شعاراتنا هي شعارات المرحلة في بيان ٣٠ مارس ، وعلى مستوى العمل الطلابي داخل الجامعة أصبح الحرس الجامعي مقيدًا لا يتدخل في النشاط السياسي ، ولا يراقب مجلات الحائط «التي أصبحت الصحافة الحرة الوحيدة في مصر وقتها ، حسب تعبير وائل عثمان ـ الدقيق للغاية ـ في كتابه أسرار الحركة الطلابية » .

أكثر من هذا صدرت لائحة جديدة لاتحاد الطلاب بالجامعة نزعت عنه وصاية أعضاء هيئة التدريس الذين عمدوا في كل الأوقات ، إلى إخماد حماس الشباب ، فإخماد الحماس كان ، ولم يزل ـ هو الأمن المطلوب ، الذي يكافأ عليه عضو هيئة التدريس « إذا مارسه بذكاء » ، أما المكافأة فكانت تتدرج من المزايا العينية الصغيرة ، والتسهيلات الاقتصادية ، والأمان الشخصي والتمتع بالسيادة « السادية » على الزملاء ، صاعدة ـ المكافأة ـ إلى كرسي الوزارة ، وميراث الوزارة من المكاسب التي يتلقاها الوزراء وتصبح من حقهم وأسرهم بعد ذلك وهم وزراء سابقون ، تلك المكاسب التي يعرفها الوزراء ويجهلها الشعب ، وصدرت صحيفة مركزية للطلاب يعبرون فيها عن آرائهم السياسية في حرية ، لم تكن الصحافة المفروضة علينا تتمتع بها « أقصد بالطبع الصحافة القومية المملوكة للنظام فعليًا ، وللشعب بالاسم ، بل زورًا وبهتانًا » .

حدث تغيير « طالت إجراءاته ، واستمرت ، ولم ينته إلى نتائج كبيرة » ، ولكن وسط هذا التغيير تنامت محاولات الاحتواء « أصبح للحركة قيادات متصلون مباشرة بشعراوي جمعة وزير الداخلية ، وأمين التنظيم الشعبي في نفس الآن ، وآخرون من القيادات الطلابية يسيطر عليهم سامي شرف ، سكرتير الرئيس ، والشخصية الكبرى في التنظيم الطليعي ، وكانت هذه القيادات الطلابية « في نظر النظام وحده فلم نكن نرى في معظمهم أية مزية أو أية صفة تؤهلانهم للقيادة إلا

قدرة البعض منهم على خداع بعض الطلاب بعض الوقت » ، تسعى ، أرادت أو لم ترد ـ إلى تهدئة غضبة الطلاب ، وإشاعة وعود وتصورات تفوق كثيرًا حجم ما أنجز ، أو ما يمكن إنجازه في نظر الطلاب بواسطة سلطة لم تتغير التغير المطلوب ، « أو هي تمارس التغيير بأسلوبها هي ، أسلوب التأجيل المستمر بدعوى أن الفترة التاريخية دقيقة ولا تسمح » ، وفي نفس الوقت الذي سعت فيه السلطات للاحتواء « احتواء الحركة عن طريق السيطرة على بعض قيادتها بكل ما تملك من قوة وتهديد، ومن مكر ومن ذهب المعز أيضًا الذي صار بزات وقمصان وربطات عنق فخمة لدى البعض وسجائر أمريكية في جيوب البزات الفخمة!! (ومنهم من كانوا يستعطونها من الآخرين قبلاً!) .

وسط محاولات الاحتواء هذه تسربت في الصحافة ، وعلى لسان المسئولين نغمة لم تكن صريحة ، ولكنها كانت محسوسة ، تؤكد أن ما فات « مرة وعدت » ، وأن الويل والثبور وعظائم الأمور سوف ينتظرون من يحاول أن يعيد الكرة ، وحدث تضخيم أيضًا للشعار : « لا صوت يعلو فوق صوت المعركة » ، بينما الجيش المصري « الذي ظلمته حرب ١٩٦٧م ، أو ظلمته قيادتها » يبدأ في تنفيذ معارك المدفعية ، التي كانت بداية مباشرة لحرب الاستنزاف العظيمة مرة أخرى رحم الله شهدائنا وبينهم عادل حافظ عبد المجيد زوج ابنة خالتي وكان وكانت في شرف الشباب ، وبقيت لا تتزوج بعده) .

التغيير على طريقة السلطة ومحاولات الاحتواء والتهديدات الخفية « وتفتق ذهن السيد شعراوي جمعة بموافقة ورعاية جمال عبد الناصر عن تكوين « الأمن المركزي » المدرب تدريبًا جيدًا على مواجهة الطلاب بدلًا من بلوكات الأمن التي لم تفلح في مواجهتهم والتي زاد النشر عنها لإرهاب الطلاب بالأداة الجديدة التي أعدها وزير

الداخلية وأمين التنظيم السياسي العلني والسري!! » ، لكن أهم المؤثرات قاطبة كانت بداية حرب الاستنزاف.. وما كنا ننتظره من ورائها، كل ذلك أربكنا ، هل نكتفي بهذا القدر من التغيير حتى لا نشوش على المعركة ؟ أم نستمر حتى نحصل على كل ما نريده ، ولنعترف الآن ، لنعترف بأننا وقتها ما كنا لنستطيع أن نتخذ قرارًا ، ولعلي الآن أذكر تلك المقابلة التي كادت أن تضيع مستقبلي .

مقابلة مع رجل يستحق كل تقدير :

الأسماء تفر من ذاكرتي ، لكن ما أذكره جيدًا أن حدث وجاءني زميل أعتز به « ممن كانوا رفاق منظمة الشباب في المدرسة الإبراهيمية الثانوية وهو الآن الدكتور عبد الحميد الجزار الطبيب النابه في أمريكا والذي تستعين به دولة الكويت على فترات » كنا ـ قبلها ـ قد أصبحنا ـ هو وأنا ـ طلبة في كلية الطب جامعة القاهرة « حولت من طب المنصورة إلى طب القصر العيني من بداية العام الدراسي ٦٨ - ٦٩ » ، ليخبرني أن أحد أعضاء هيئة التدريس يريد أن يقابلني في كافيتريا « هيئة التدريس » في الكلية ، كان الموعد غريبًا ، ولما رأى زميلي وصديقي الحيرة في وجهي ، قال في طيبة معهودة فيه ، وفي لهجة أشعرتني أنه مضطر لسبب ما لإخباري بالموعد :

ضروري تروح يا هشام في الميعاد .

وذهبت .

وجدت عضو هيئة التدريس « أظنه كان مدرسًا في ذلك الوقت » في انتظاري ، وبادرني بإصراره على أن أطلب شيئًا طلبت « كابتشينو » وجلست متوجسًا في انتظار الكابتشينو « كنت أريده أن يأتي ليبدأ الرجل في الكلام المهم الذي استدعاني من أجله » ، جاء الكابتشينو ، ثم بدأ الدكتور ـ أستاذي ـ حديثه بالديباجة المعهودة « كنا قد تعودنا عليها في منظمة الشباب » قال : أن شبابًا مثلي « في ظنه » هم شباب الثورة ،

وشباب جمال عبد الناصر ، وأن الثورة تمر بانعطافة تاريخية « كل انعطافات الثورة كانت تاريخية » وأن على شباب عبد الناصر أن يبادروا بالوقوف وراء عبد الناصر .

قطعت استرساله سائلًا في سذاجة مصطنعة :

ضد من ؟!

ضد أعداء الثورة .

من هم أعداء الثورة ؟!

معروفون .

قلت محاولًا بشدة أن أخفي ضيقي الشديد متكلمًا في « حيادية » تغيظ .

أنا لا أعرفهم .

أحسست بالضيق يتسلل إلى وجه عضو هيئة التدريس الذي لا أذكر اسمه .

قلت لكي أنهي المحاورة والمداورة :

حضرتك تقصد معارضي جمال عبد الناصر ؟

الحقيقة كان الرجل شديد الذكاء فبادرني بحدة حاول أن يخفيها :

لا ... أقصد أعداء جمال عبد الناصر .

وتنهد في ضيق ليسترسل :

أقصد الرجعيين ، وأعداء جمال عبد الناصر في النظام نفسه (هي بعينها نغمة منظمة الشباب التي لم يعد لها وجود فعلي).

والمطلوب ؟

أن نقف مع جمال عبد الناصر .

أين ؟

في التنظيم الطليعي .

ولماذا لا يقف جمال عبد الناصر معنا ؟

مع من ؟

مع أعداء الرجعية ، وأعداء أعداء جمال عبد الناصر في النظام .

هل تشك في أن جمال عبد الناصر وتنظيمه الطليعي ضد هؤلاء ؟

الحكاية ليست أشك أو لا أشك ، ولنكن صرحاء ، عبد الناصر لا يحتاج إلى تنظيم سري ليقف ضد أعداء ثورته من الرجعيين ، وبعض البيروقراطيين والانتهازيين في نظامه ، عبد الناصر يحتاج إلى أن يدعو علنيًا لمحاربة أعداء ثورته بنوعيها ، وساعتها ستكون الأغلبية الساحقة من أصحاب المصلحة في ثورته ، من الشعب المصري معه ضدهم ، مشكلة الشعب الآن أنه متأكد من أن عبد الناصر سُلْطة ، تخفي أخطاءها ، لقد تعبنا من حكاية تنقية الثورة هذه من أعدائنا ، وتعبنا لأننا في كل مرة كنا فيها نأخذها جدًا ، نفاجأ بأننا نحن (المخلصون للثورة المعادين لأعدائها) هؤلاء الأعداء الذين لا يتحملنا عبد الناصر « السلطة »؛ لأننا نفضح تكوينات إن لم يكن جمال عبد الناصر يؤيد أقوالها فهو يرتاح لها لأنها تدافع عنه عمال على بطال، في الظاهر وتمارس فسدها في السر ، محتمية برضاء النظام عنها ، أن الانتهازيين ـ يا سيدي ـ الذين يقولون كلامًا يريحه ليفعلوا أفعالًا تريحهم ، وهم دائمًا الذين ينجحون في ضربنا .. وتنهدت قائلاً : بصراحة لن أنضم إلى تنظيم لا يحتاج إلى أن يكون سريًا ، إن سرية هذا التنظيم هي ما تريبني [1] ، كنا في منظمة الشباب علنيًا نستطيع أن نحقق ما يريده جمال عبد الناصر الآن ، ومُنعنا وضُربنا

(١) ستقرأ تحليلًا لتنظيم عبد الناصر الطليعي والديمقراطية التي لم يكن يعرف غيرها جمال عبد الناصر ، وهي لا تشبه الديمقراطية إلا في الاسم ، في باب « تنظيم عبد الناصر الطليعي » .

لأن عبد الناصر لم يأخذ صفنا ، ترك الآخرين يفصلون بينه وبيننا ، لأنهم في ظنه عناصر مأمونة ، يحافظون على الثورة (حفاظًا على الفساد ومكاسبهم من وراءه) ، وبهذا مكنهم من تصفيتنا أكثر من مرة ، ولا أظن إلا أن الآخرين هؤلاء هم نجوم التنظيم السري الآن .

لقد حدث تغيير شامل .

لا أظن ، نفس الوجوه موجودة بقوة .. وأستطيع أن أعدد لك أسماء، وإذا ما كانوا هم الذين سيحددون من هم أعداء عبد الناصر وثورته ، فأنا أضمن لك من الآن أنني عدو جمال عبد الناصر وثورته ، أضمن لك ، بل وأتجاسر وأحذرك - وأنا أستشعر إخلاصك - من أن المخلصين سيكونون بقدرة قادر هم أعداء الثورة لأنهم أعداء الانتهازيين الذين يرتاح جمال عبد الناصر لكلامهم المعلن وهو ستار الدخان الذي يمارسون من ورائه كل الفظاعات ، إن الرئيس ثقة في أنه يستطيع أن يصحح كل الأخطاء ، وكل الانحرافات في الوقت المناسب - يعادي من يعاديهم « أقصد يعادي من يعادي الانتهازيين » .

لا تقل هذا الكلام .

لكنني أقوله ، وأقول بشكل أوضح ، لأن هؤلاء هم رجاله ورجال ثورته ، أنا ضد عبد الناصر وضد ثورته .

سكت الرجل وبعد لحظة فوجئت به يقول لي في حنان آخاذ .

ورددت في انفعال ورثته من أبي :

اعتبر إن احنا ما تكلمناش مع بعض .

أذكر الآن لهذا الرجل الشريف ، الذي أجهدت ذهني لأذكر اسمه ، إنه حماني من

نتيجة انفلاتي العصبي ، وقول ما لا يقال .

كان رجلًا ...

بهذا الانفلات العصبي إذا كنت قد أحسنت تصويره ، خرجت حركة نوفمبر ١٩٦٨م ، غاضبة حتى درجة الانفلات . عنيفة حتى درجة الغليان ، وضد جمال عبد الناصر (نعم في نوفمبر كنا جميعًا ضد جمال عبد الناصر).

ولعلنا نتوقف مدققين في أمرين أراهما قادرين على أن يشرحا لماذا كان الغضب ؟ ولماذا كان الانفلات الجامح في مظاهرات نوفمبر ١٩٦٨ ، وذلك قبل أن نعاين حركة الطلاب في نوفمبر ١٩٦٨ ، بعد حركتهم في فبراير من نفس العام.

أول الأمر : هو بيان ٣٠ مارس (نفسه) .

وثاني الأمرين : هو تنظيم جمال عبد الناصر الطليعي .